هل الرقمنة رافعة كي لا يضمحل الفهم العام لمجالات العلوم الإنسانية؟!

غسان مراد

منذ ٢٠٢٢ بدأنا نشهد تداخل للأبحاث والدراسات مع تقنيات الذكاء الاصطناعي، بعد أن كان يتعلق بعضها بالرقمنة بشكل عام، مما يؤثر بوضوح أن العلوم الإنسانية تتأقلم مع التغيرات، وهذا أمر حتمي وإيجابي، بالرغم من أنها تختلف في مقارباتها التطبيقية عن العلوم الصحيحة وعلوم الأحياء. هذا الاختلاف يأتي من صعوبة شكلنة العلوم الإنسانية التي تعتمد على النص الذي بات في حالة تغير دائم من جراء رقمته ونشره على الشبكات الرقمية.

والسؤال الذي يطرح دائماً، كيف نعرف العلوم الإنسانية لعامة الناس الذين لا يمتلكون أدنى فكرة عن هذه العلوم وأهميتها؟ لأنّ التعريف النظري والمعرفي يطرح دائماً نوعاً من الشك من جراء عدم إمكانية تبسيط بعض المفاهيم. لذلك يجب إعادة النظر في هذا الأمر من جانب الباحثين والأساتذة الجامعيين ووسائل الإعلام وعامة الناس. فمن الملاحظ أن سوء الفهم الذي يواجهنا من وقت لآخر يؤدي بلا شك إلى تفاقم المشكلة. فهل العلوم الإنسانية وفهمها بحاجة إلى دينامية مختلفة لمعالجة وضعها وتبيان أهميتها؟

الجواب نعم وبقوة! ولكن ماذا عليها أن تفعل؟ وماذا على الباحثين في المجال والأكاديميين أن يفعلوا؟ قبل كل شيء، على العلوم الإنسانية أن تتأقلم مع التغيرات من خلال التجديد المستمر والبحث عن براديجمات ومفاهيم تتناسب مع التحوّلات بمجملها، إن كان تقنية أو إجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو تربوية... وهذا ما نحاول القيام به في مجلة دراسات جامعية من خلال النشر العلمي لمقالات تعالج مسائل مطروحة أنياً ومتجددة. ولكن، على الرغم من ذلك تُطرح تساؤلات عامّة عن جدوى العلوم الإنسانية وفائدتها، ليس فقط في ضوء التحوّلات الرقمية وتطبيقاتها بل على المستوى العام، وقبل دخول الرقمنة الى مجالات العلوم كلها.

وباختصار ومن دون تفصيل، من الممكن تحديد الأسباب بناء على عدّة وقائع: أولاً، إنّ عدم تعبئة العاملين في الجامعة، من خلال إثارة الموضوع عبر وسائل الاعلام، من الممكن أن يؤدي إلى عدم اهتمام بقية أفراد المجتمع. ثانياً، على الباحثين القيام بأبحاث في العلوم الإنسانية والاجتماعية تكون محل اهتمام المواطنين. ثالثاً، على هذه الحركة أن تثير تفكيراً يتجاوز الحدود الأكاديمية لتبيّن مكانة هذه العلوم الإنسانية في الأنظمة الحديثة وفي ظلّ التحوّلات الرقمية والذكاء الاصطناعي بشكل يخفف الفجوة المتزايدة بين العلوم الإنسانية والمجتمع بصورة عامة التي أنت كنتيجة جزئية لاستقلالية البحث العلمي عنه.

استطراداً، على الرغم من استقلالية البحث العلمي والمجال العلمي، فهذا لا يعني أبداً أنه على الباحثين عدم المبالاة من جانبهم تجاه التوقعات السياسية والاجتماعية والثقافية، بل بالعكس هم من أهم الفاعلين الذين بأستطاعتهم طرح رؤى مستقبلية واستشرافية مبنية على وقائع فعلية.

ولعلّ الإحباط الناجم من الشعور بعزلة العلوم الإنسانية، يأتي أيضاً من خلال القائمين على البحث العلمي استراتيجياً، والذي يؤدي إلى عدم الاستثمار فيها من حيث التمويل والبنية الأساسية، على أساس أنها غير منتجة ربحياً واقتصادياً. ولكن علينا الربط بين الاستقلالية والمنفعة العامة. فالبحث العلمي الفعال يحتمّ تمكين الباحثين لكي يقوموا بصياغة مشاريعهم بحرية. فالمعرفة الإنسانية ليست سلعة كباقي السلع ولا يمكن بيعها بسهولة. وهذا يتعلق بإمكانية الباحثين على تخطّي هذه المعضلة. ويتجلى برهاننا المباشر على أهميتها، في أننا لا يمكن اختزال العلوم الإنسانية والاجتماعية والتربوية بأوامر ونتائج قصيرة الأجل، ويهدف ربحي مباشر، كون القضايا الإنسانية لا تلاحظ كما تلاحظ الظواهر العلمية الصحيحة.

من منظور مواز، العلوم الإنسانية هي حقيقة والسؤال عن جدواها هو سؤال زائف ناتج إما من عدم فهم وإما من "خبث" يدفع إلى تجهيل الشعوب ويحدّ من الانفتاح الذهني الذي يؤثر في الثقافة العامة التي يمكن للباحثين والطلاب اكتسابها. فالتعددية المعرفية التي نلاحظها من خلال فهم الظواهر الإنسانية وتقييمها ونقدها، وبناء نظريات لها هي التي على أساسها نتعرف إلى هيكلية المجتمعات.

إدًا على العاملين في العلوم الإنسانية التوجه نحو ترجمة معرفتهم للجمهور غير المتخصص. وشرح أهمية البحث العلمي واستقلاليته. فالعمل الأكاديمي البعيد عن اهتمامات المواطنين العاديين، سيكون عديم الفائدة، ولا يجيب على الأسئلة التي يطرحها الناس. كما لا يُمكن إنكار أن العلم سيبدو لنا دائماً ناقصاً إذا لم يُساعدنا، عاجلاً أم آجلاً، على تحسين حياتنا. هذه هي المشكلة برمتها وهنا تكمن أيضاً أهمية فهم منفعة وجدوى العلوم الإنسانية.

انطلاقاً من ذلك، فإنّ العلوم الإنسانية هي التي تؤدي إلى إبراز مشاكل جديدة أمام الجمهور، كانت في السابق موضع تجاهل أو تمّ صياغتها بشكل سيئ، لذلك على الباحثين في المجال اختيار موضوع دراستهم أو الأسئلة التي يقرّرون طرحها عند مواجهة مجالهم، أو أرسيفاتهم، أو النماذج النظرية المتاحة لهم.

وهذا ما نحاول القيام به من خلال النشر العلمي المتخصص، والتعريف به؛ إذ على الباحث أن يكون مسؤولاً أمام المواطنين الذين يسهمون بشكل أو بآخر، على الرغم من عدم الفهم العام للأمر، في دفع مستحقته من خلال الضرائب عندما توجد! وتسلط الضوء، صراحة أو ضمناً، على المشاكل السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع في وقت معين، وتحسين التنسيق بين البحث واستخداماته (التدريس، والخبرة، والتكليف، والبحث العملي، وما إلى ذلك).

كما من المفترض مدّ الجسور بين المعلم والباحث والممارس للبحث العلمي والعلوم الإنسانية. لذلك فقد بات من الضروري إعادة طرح التساؤلات حول الترابط بين المعرفة العلمية والمعرفة "العادية" من أجل إعادة التفكير في شخصية المثقف الملتزم. كما من المفترض بناء التكامل بين المعرفة العلمية والمعرفة المبسطة، إذ على المعرفة التي تنتجها العلوم الإنسانية أن تكون مكتملة تماماً لمصادر المعرفة الأخرى، وخاصة المعرفة "العامة" الناتجة من التعلم الجماعي، أو الروتين، أو التعاون بين الفاعلين الاجتماعيين. وهذا بهدف تحديد مجالات أهميّة المعرفة في العلوم الإنسانية، وبالتالي تجنّب خيبات الأمل الكامنة في كل ركن من أركان التطور. وهذا من الممكن أن يؤدي إلى نوع من "الإحباط" الناجم من فقدان سلطة البحث العلمي قدرته على طرح الآراء المتعددة

من جهة، ومن تراكم النتائج التي سوف تؤثر في الأفكار الأكثر تجذراً في الروتين الذي ينعكس على المعرفة العادية وأثرها المجتمعي المباشر، من جهة ثانية.

ومن هذا المنظور المستوحى من البراغماتية، فإن عمل الباحث يتألف من المشاركة في إنتاج الفعل، والتعاون في تشكيل المجتمع، مع التنسيق الوثيق دائماً مع الفاعلون في المجتمعات والقضايا التي يثيرونها، مع الحفاظ على كل ما يتعلّق بالناحية الأخلاقية وإضفاء الطابع المؤسسي على مسألة الاستخدامات والمنفعة التي تعني أيضاً ضمان الظروف اللازمة لاستمراريتها وتراكمها، من خلال المؤتمرات ومركز الأبحاث والنشر العلمي المنتظم الذي ينظم التفكير الجماعي، ويخلق نقاشاً مشتركاً كمرصد لاستخدامات العلوم الإنسانية، والتفكير في علاقتها بالاقتصاد وقضاياها.

بناء على كل ذلك، يأتي هذا العدد ١٨ من خلال عناوينه المتعدّدة والتي تقدّم مجموعة منها دراسات حول تأثير الذكاء الاصطناعي في التعليم وفي علم النفس، وتتمحور الأولى حول "الذكاء الاصطناعي في صفوف اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية حليف أم خصم؟ رؤى من الأساتذة الجامعيين في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. والثانية، حول القلق التكنولوجي الناتج من استخدام الذكاء الاصطناعي وتأثيره في الصحة النفسية لدى طلاب علم النفس في الجامعة اللبنانية - الفرع الثالث. أما الثالثة فتعالج مدى تأثير تطبيق تقنيات تعليم بديلة من قبل أساتذة التعليم الثانوي في لبنان وذلك عند سماحهم للمتعلمين باستخدام أدوات الذكاء الاصطناعي خلال التحضير للعروض الشفهية. والرابعة تتطرق إلى الفرضيات التي تتيحها الروابط والوسائط المتعدّدة للاستخدام السردي، وتقترح كيفية استثمارها من أجل مساعدة الأطفال على بناء شخصياتهم، عبر طرح سيناريوهات لأدب أطفال متجدّد بوساطة السرد الرقمي التفاعلي.

أما في مجال الجغرافيا فتهدف الدراسة المطروحة في هذا العدد إلى تطوير مؤشر متعدّد الأبعاد للمعرفة المائية (WKI) لتقييم الإلمام العلمي العام بالتحديات المتعلقة بالمياه وتقييمه، مع التركيز على قضايا المياه الفريدة في لبنان.

وفي مجال الترجمة، تُطرح في هذا العدد إشكالية مزدوجة ترتبط بأخلاقيات المترجم، وتمثّل العالم في الثقافتين المصدر والهدف، من خلال دراسة تحت عنوان "مأزق الاقتباسات الضائعة والاقتراضات "غير الضرورية" في الترجمة.

وفي حقل أبحاث الطلاب، تُعالج في العدد مسألة الذكاء الروحي والتأهيل: دراسة في مركز تأهيل مدمني المخدرات في لبنان، وتسلط الدراسة الضوء على أهمية دمج المكونات الروحية في برامج إعادة التأهيل لتحسين جودة الرعاية وتعزيز التعافي المستدام في السياق الثقافي المحدد للبنان.

أخيراً، ضمن محور قراءة في كتاب، فقد أنتت القراءة لكتاب "المدن الذكيّة في العالم العربيّ وتأثيراتها الاقتصادية والاجتماعية" للكاتب نضال أبو زكي.